ازمة الرسامين العرب

بقلم سليمان فياض

بين حين وآخر ، يقيم الرسامون العرب معارض للوحاتهم الفنية في عواصم الاقطار العربية وبعض مدنها المتحضرة . وفي كل معرض يقيمه رسام او مجموعة من الرسامين ، تثور ازمة حادة ومتكررة من ازماتنا الفنية العربية المعاصرة . وهذه الازمة الموسمية تتمثل في ان المعرض الذي اقيم — ولم يفد عليه سوى عشرات من المشاهدين كل يوم ، وطيلة مدة تتراوح بين اسبوع وشهر على وجه التقريب — ما يلبث ان ينفضّ ، دون ان تباع منه سوى لوحات معدودة، حُكم عليها دون اي مبرر موضوعي ، بان تنتقل من حيازة الفنان الذي ابدعها ، الى يد مشتر واحد ثري الى درجة يطيق فيها ان يدفع ثمناً للوحة واحدة ، مبلغاً لا يقل غالباً ، عن خمسة وعشرين جنيهاً مصرياً ... كي تعلّق في النهاية ، وبصورة ابدية ، على جدار اصم ارجواني اللون ، في مقبرة ذهبية لسيد عظيم .

وهكذا، وبكل بساطة ، تسلب اللوحة من مبدعها مقابل جنيهات محدودة ، لتوضع في مكان بعيد عن الرسام ذاته . وفي الوقت نفسه تسلب من الناس، من الارض التي اوحت بها الى وجدان متفتح .. وفي النهاية ، يعود الرسام حاملاً معظم لوحاته الى حجرته المنزوية المتواضعة ، المقفرة الا من عينيه المتألقتين بارهاق وشوق لا حد لهما ولا نهاية ، وتعود معه ، ايضاً مئات المشاهدين فارغة الايدي مشلولة القدرة ، اكرم على نفسها، بسبب عجزها المادي، من ان تحيل بيوتها الى مقابر وثيرة مزخرفة الجدران .

وفي الواقع اننا لن نجد ازمة فنية حادة كازمة فن الرسم، من حيث انه فن معبر يحتاج اليه الناس ، بنفس الدرجة التي يحتاجون فيها الى سائر الوان الفنون الاخرى ؛ وبالتالي وتبعاً لعدم تلبية هذه الحاجة ، فلن نجد مأساة فنان كالرسام . ذلك ان الادب بمختلف اشكاله يجد ، دائماً ، طريقه الى النور ، الى القراء عن طريق الكتب والمجلات الادبية ، والصحف في بعض الاحيان . وكذلك الموسيقى تعرف طريقها عبر ما لا يلمس أو يرى الى الآخرين ، عن طريق الشرائط والاسطوانات والاذاعة ، وخاصة في الحفلات الموسيقية العامة . ومن هنا يقف الاديب والموسيقيّ على ارض ثابتة مؤمنة الموارد الى حد ما . اما فن اللوحة ، فبرغم انه فن مرئي، يتيح بما فيه من تجسيد وابعاد وهمية ، اثارة احساس المشاهد وانفعاله اكثر مما يثير عقله وتفكيره ، خلافاً لما يحدث في غيره من انواع الفنون الاخرى تقريباً . وهذا ما يجعل فن اللوحة اقرب الى الناس في درجة تذوق هذا الفن ، او على الاقل ، في طلبه والاستجابة له من سائر الفنون ؛ وبرغم ان اللوحة بطبيعتها سجن من الخطوط والالوان ، يثبت المشهد في الزمان والمكان تثبيتاً ابدياً ، دونه اي تثبيت آخر في فن سواه ، لانه اقل منها قابلية للتفسير والاستشفاف... وهذا ايضاً ما يجعله اكثر قرباً وفاعلية في الناس من الفنون المغايرة ... برغم ذلك كله، فان فن اللوحة لا يعرف طريقه الى الناس ، نتيجة للحكم عليه بمقابر المشتري الواحد . وفي الواقع انه حكم طبيعي ما دامت اللوحة لا تتكون الا من صورة اصلية واحدة ، ومهما نقل عنها من صور (طبق الاصل) فلن يحررها ذلك من مقابر المشتري الواحد ، الآخر، الذي يرغب في حيازتها ، فضلاً عن اختلاف هذه الصور عن الاصل ، مهما قيل عنها انها (طبق الاصل) ، وبخاصة اذا تعدد الرسامون . وحتى لو رسمها فنان واحد (ولو كان هذا الفنان هو صاحبها) ، فلن يعدو ان يكون الرسم تقليداً ، تكفي فيه رعشة خط او قتامة لون لتبعده عن الاصل الى الابد .

وان المأساة لتبدو في اشد اوجها بالنسبة للرسام الحقيقي، حيث انه لا يقدر بطبيعته منزعه النشاطي في العالم على ممارسة عمل آخر في الحياة سوى ان يرسم ، وان يعطي للآخرين في ذاته واحساسه بالعالم . ومن وراء هذه الطبيعة وذلك النزوع وارتباطه بالمشتري الواحد ، تقف في انتظاره دائماً الحجرة المتواضعة ، والحاجة الدائمة المكرورة والسخط والتشاؤم الذاتيان المنعكسان لا محالة في فنه ، اذا لم تكن له اعصاب

مرنة يحتمل بها ثقل العالم وفظاظته معاً . وربما دفعت الحاجة الملحة بالفنان الى ارخاص فنه ، فاشتغل بالرسوم العاجلة في الصحف والمجلات التي لا تفرض عليه الموضوع فحسب ، وانما تفرض عليه في كثير من الاحيان طريقة الرسم واختيار الاشخاص والاشياء والخطوط والالوان والابعاد . وأياً ما كانت محاولة الرسام لتحرير نفسه من ربقة المشتري الواحد ، ومن وطأة حاجته ، بتهاويه في احضان الصحف والمجلات ، او بنسخه عدة صور للوحاته ، فان النتيجة واحدة في كلا الطريقين بالنسبة للناس ، لان اياً من طريقيه ليس سوى حكم على الجماهير ، بان تقف وحدها في الحياة ، وبوعيها اليومي المعتاد ... دون ان تتذوق اللوحة الحقيقية الا عن طريق صورة مطبوعة طبعاً مشوهاً لها على اوراق الصحف والمجلات ، بل ودون ان ترى نفسها في لوحة واعية تجمع لها حس انسان فنان بعالمها اليومي الحي ... حين تعود الى البيوت العارية الجدران ، كعري حياتها اليومية من المعنى واللون والطعم في دوامة العمل الابدي المعتاد ... وهكذا يموت فن من الفنون الحقيقية في عالمنا ببطء ، امام اغراء الصحف والمجلات ، او على الاقل يحيا في الظلام ، في مقابر الاثرياء حيث يجوع الفنان وتنطفىء لوحته بما فيها من قوة وسحر ، وتصبح كسلاح صدىء مغلول ، وآنئذ يسير الجمهور عارياً من احد اسلحته في دفاعه عن نفسه ضد الموت ، وضد مظالم العالم الرهيب .

ومأساة فن اللوحة هذه ، سواء بالنسبة للرسام او للجمهور ، هي في الواقع امتداد تاريخي قديم قدم الانسان في العالم ، لمأساة الفن على العموم ، منذ عرف الانسان التعبير بالصوت والخطوط والالوان ، ايام المصريين القدماء وسكان الفرات وهنود آسيا والهنود الحمر . فالفن سواء أكان أدباً أم موسيقى أم رسماً أم نحتاً ، كان مرتبطاً منذ العصور الحضارية القديمة بالنظم الاقطاعية ، فالرأسمالية . كان فن ملوك وأمراء وقصور ومعابد ، على تتابع العصور القديمة والوسيطة . وفي الشعر العربي القديم ، والموسيقى الكنسية ، ولوحات « ليوناردو دافنشي » في العصور الوسطى .. أمثلة تاريخية متتابعة شديدة الدلالة على هذه المأساة ، في الفن عموماً قبل عصرنا الحديث .

ولكن ، منذ بدأ الجمهور يعرف طريقه الى الحرية والحياة الاشتراكية في العصر الحديث ، أخذ الفن يتحرر كلما تحرر الجمهور ومصادر الرزق من الملوك والامراء وسطوة المعابد والقصور . وكان تحرر الفن بجميع أنواعه طردياً مع تحرر حياة الناس . فتحرر الادب ، وتحررت الموسيقى ، وتحرر فن اللوحة من التعبير عن الملوك والامراء والقديسين والقصور والمعابد ، إلى التعبير عن رجل الشارع في عمله وبيته .

ومع هذا التحرر الفني العام من مضمون إلى مضمون ، التحرر الذي امتد حتى شمل فن اللوحة في السنوات العشر الاخيرة من تاريخنا العربي ، فان فن اللوحة نفسه ما يزال خاضعاً لذات العبودية التاريخية القديمة ، من جهة علاقته التجارية بالمستهلك . فما تزال اللوحة تباع لمشتر واحد ، وما يزال الرسام عبداً (برغم انه المنتج) لهذا المستهلك الواحد ، بينما نرى ، في الوقت نفسه ، ان الادب والموسيقى قد تحررا ، لا من جهة تجاربهما التعبيرية فحسب ، وإنما ايضاً ، من جهة علاقتهما التجارية بالآخرين . فالجمهور هو الذي يشتري من الاديب والموسيقي وما يؤازرهما من دور نشر وشركات توزيع ومكتبات . وهنا تبدو علاقة الرسام المنقطعة بالجمهور ، وعلاقته المشدودة بالمشترى الواحد ، علاقة معكوسة في ذاتها ، وعلى عكس علاقة كل من الاديب والموسيقي بالمستهلكين . وفي الواقع انها علاقة مضحكة الى ابعد الحدود وخاصة إذا عرفنا أن فن اللوحة الآن أقرب الى الجمهور بطبيعة مضمونه الحديث ، وبحكم أن اللوحة مشهد منظور ، مثبت ، وأقل قابلية للتفسير والاستشفاف ، بل وأكثر بساطة من الموسيقى بالذات ومن الادب على العموم . واذا أدركنا أن هذا الفن قد تطور تطوراً مذهلاً يكاد يتفوق فيه على تطور غيره من فنوننا العربية المعاصرة ، برغم قصر الامد الذي تحرر فيه هذا الفن من كلاسيكية الزخرفة القديمة .

والسر في هذه العلاقة التجارية المعكوسة ، المتناقضة مع طبيعة المضمون الجديد في لوحاتنا الفنية .. يرجع بالدرجة الاولى الى ان فن اللوحة في بلادنا ما يزال مشدوداً الى عجلة التوزيع الرأسمالية البغيضة حيث يبدع الرسام ويشتري الاغنياء ويقف الجمهور وحده حائراً في الظلام ، ليواجه المجهول ، دون ان يحس بواقعه الحقيقي ، بسموه ، بانحطاطه ، مركزاً في لوحاته ، في فن اسقطت عليه احساسات فنان بعالمه ، ودون ان يعرف الاعداء الحقيقيين للحياة ، اولئك الذين صنعوا المأساة التي عبرت عنها ريشة الفنان .

ومن الطبيعي ان يجني استمرار ارتباط فن اللوحة بعجلة

التوزيع الرأسمالية ، على فن اللوحة نفسه ، كمصدر رزق يمكن ان يكون وفيراً على الرسام، وكقوة معبرة عن الجمهور، وفي الوقت ذاته، كقوة فاعلة مؤثرة في وجدانه الغافي الرتيب الاحساس في عالم باهت مخنوق . ومن الطبيعي ايضاً ، ان يكون فن اللوحة العربي الجديد ، الوليد .. مهدداً منذ الآن بالانقراض ، كنتيجة طبيعية لاستمرار هذا الارتباط بينه وبين المشتري الواحد .. ومهدداً ، ايضاً ، بأن يستحيل الى لعنة على رسام مخلص لفنه حتى الجوع والموت ، وبأن يتحول الى عمل لا جدوى منه كنشاط انسان فاعل بالنسبة للجمهور .

فالمشكلة الحقيقية التي تواجه الرسامين العرب ، هي مشكلة عدم تلاؤمهم مع واقع المجتمعات العربية الجديدة (في طريقة توزيع انتاجهم الفني) ، المجتمعات التي تتحطم فيها قلاع الاقطاع والرأسماليات النـاشئة واحداً بعد آخر . فالرسام العربي الآن – كما قلنا اكثر من مرة – مايزال يعرض لوحاته ذاتها للبيع . وبطبيعة الحال ، فاللوحة او نسخها المقلدة لن يشتريها سوى واحد او افراد معدودين. ومعنى ذلك ببساطة، ان الرسام الحقيقي الممتلىء اصراراً على ان يظل يرسم باخلاص ، برغم مايحيط به من ضياع وهلاك ، رافضاً ان تعزيه الصحافة وتستهلكه ، سوف يظل عبداً لسادته عبودية دائمة ،مهدداً بالموت مع سادته ، ان لم يهب نفسه الحرية والحياة .. مادام مرتبطاً بمشتر واحد يمتص جهده الفني بجنيهات ، ويميت ما في لوحاته من قوة تعبير واشارة بحبسها في جدران بيت ، كي يحول وظيفتها ، بدون قصد، من المسؤولية الجماعية المطلة منها على العالم ، الى المتعة والتلذذ الفرديين .. وما دام الرسام لا يعي في علاقته التجارية التطور الزاحف نحو حياة اجتماعية مغايرة لوضعنا الحالي وتاريخنا القديم ، وما يستتبعه هذا التطور من تغيرات عميقة ومنتشرة في علاقات الانتاج والاستهلاك . ونحن الآن في هذه الفترة من تاريخنا العربي ، نلاحظ ان بشائر هذا التطور قد بدأت تفتت على جنباتها الصاخبة رؤوس الاموال الضخمة ، وتذيب معها امكانيات الشراء الفاحشة ، القادرة على سلب اللوحات من الرسام ومن الشعب بمساومات خسيسة . وان الصرخات الحالمة الحادة التي تطلقها الشعوب العربية الجديدة ، ورجال الاقتصاد ، بين حين وآخر ، منادية بتأميم المرافق الاجتماعية ، والمصانع المستهلكة استهلاكاً عاماً ، سوف تتحول في يوم قريب الى تلبية عملية وواقع حي ، وبالتالي فلن تبقى هذه الصرخات من اللحظة على (جناب) المشتري الواحد . والرسامون المصريون انفسهم يعرفون تماماً بعد معارضهم الاخيرة ، ان تقويض الاسرة المالكة في مصر وتحديد الملكيات الزراعية ، والمصادرات التي اجريت على الامراء ورجال الاعمال ، قد قللت من الاقبال على شراء لوحاتهم ، ومن عدد اللوحات المباعة في مصر .

واعتقد ان الحل الطبيعي لهذه الازمة ، من الممكن استحداثه وصنعه بوسيلة مماثلة لعملية الطبع التي حلت مشكلة الادباء ، ولعملية التسجيل التي حلت مشكلة الموسيقيين . وذلك بنقل علاقة الرسام بالمستهلك ، من الطرف المنقرض الى الطرف الصاعد ، وهذا يتم بتغيير طريقة توزيع الانتاج الفني للرسامين ، فبدلاً من ان يشتري الاثرياء يشتري الناس. وسوف يجد الرسامون اقبالاً منقطع النظير من الشعوب العربية بالذات . وهذه هي الخطوط الرئيسية لحل تلك الازمة بالنسبة للرسامين وبالنسبة للجمهور :

اولاً : انشاء نقابات قطرية للرسامين في دول العالم العربي. والغاية الكبرى من هذه النقابات هي تأمين حياة الرسامين في حاضرهم ومستقبلهم ، والدفاع عنهم ، وتنظيم علاقتهم الفنية

صدر اليوم

ثلوج كليمانجارو

لصاحب « الشيخ والبحر » والفائز بجائزة نوبل

ارنست همنغواي

نقلها الى العربية الاستاذ

منير البعلبكي

الثمن ليرة واحدة

دار العلم للملايين

بالجمهور من الجانب التجاري وحده .

ثانياً : وللمساهمة في توحيد العالم العربي ، وربط اواصر الثقافة الفنية بين اقطـــاره ، وفتح اكثر من سوق عربية لتصريف اللوحات ، ينبغي تكوين نقابة عامة للرسامين العرب لها مؤتمراتها الدورية التي تنعقد كلما دعت الحاجة الثقافية او التجارية الى هذه المؤتمرات .

ثالثاً : اعداد معرض دائم للوحات في كل قطر عربي ، على الا يسمح قانون النقابة ببيعها لاي فرد، ولا لاي متحف سوى متاحف الاقطار العربية .

رابعاً : تصوير اللوحات ، وطبعها طبعاً فاخراً بألوانها وحجمها الاصليين ، او احجام متفاوتة ، ثم تأطيرهـــا بأطر مناسبة ، وعرضها في الاسواق العربية بالمكتبات واكشاك الصحافة ، باسعار شعبية متفاوتة ، حسب نوع الطبع وجودة الورق .

خامساً : حسم نسبة مئوية من اربـــاح اللوحة المباعة ، تقدرها كل نقابة ، وتوزيع هذه النسبة بين نفقات المعرض ، والنقابة القطرية ، والنقابة العامة ، والتأمينات لمستقبل الرسامين واسرهم .. حسب تقدير كل مجلس نقابة .

سادساً : لا يقبل احد في النقابة مطلقاً ، الا من له انتاج فني جيد ، ايا كانت مدرسته في الرسم ،وبعد موافقة معظم اعضاء النقابة القطرية .

... هذه هي الخطوط الرئيسية التي نعرضها لحل ازمة الرسامين العرب. ونعتقد ان عملية تصوير اللوحات وطبعها لن يقلا اصالة وقرباً من الاصل عن التقليد على الاقل ، وخاصة اذا اشرف كل رســـام على مراحل هذه العملية من تصوير وحفر وطباعة في اعداد لوحاته . ولسنا نشك في ان الرسام الحقيقي لن يرفض ان يحمل مسؤليته كفنان واع بتطورعالمه. ولن يرفض ان يكون حراً لا عبداً ، وان يحيا في رفـــاهة تمكنه من الاستمرار في تأدية رسالته كفنان ، كيما يتجنب مأساة الضياع المتكررة في حياة الرسامين على الخصوص ، وكيما تؤدي مضمونـــاته التعبيرية الجديدة رسالتها للجمهور .

ان المسؤولية الآن على عاتق الرسامين وعليهم وحدهم تقع تبعة اختيارهم ومصيرهم .. وتبعة المساهمة في مصير الشعب

القاهرة — **سليمان فياض**

جراح

مهداة الى شهدائنا

•

يا لثارات الجراح كيف تحيا
في غد تشرق من هذي الجراح ألف دنيا
كل جرح ثورة تشعل نارا
ثورة تغسل عارا
ولالحان الجروح ألف نعمى وحياة
وحنين عابق بالذكريات
رفّ كالروح على كل موات
يا جروحاً صمتك الدامي يبوح
انا اهوى الجرح لا يلتئم
ان في الجرح منىً تبتسم
فانسكب ثأراً وحقداً يا دم
يا جراح العرب يا جراح الشهب
اشرقي والتهبي حمماً وانسكبي
ان للعرب حمى لن يستباح
ياجراح
انت للحن وشاح
لصبايانا الملاح
انت دنيا ياجراح
فجّري النعمى فللنعمى صداح
حلقي بالعز فالعزّ جناح
البطاح الخضر تهفو للبطاح
نوّر النرجس في السهل وفاح
الدم المنساب اطياف صباح

دمشق — **عزيزة هارون**